يظلمون العباد ويأكلون حقوقهم ..... حج الحكام الظَلَمَة

الجمعة 21 يونيو 2024 03:00 م

شاهد المسلمون صور أداء بعض الحكام العرب مناسك الحج، من هؤلاء: قيس سعيد وعبد الفتاح السيسي، وهي صور تستدعي صورا أخرى لأداء حكام آخرين من قبل للفريضة، رغم مواقفهم المعروفة من الدين والتدين، بل إن بعض من حجوا كان لهم موقف مضاد للدين الإسلامي نفسه، وليس للتدين والمتدينين، فضلا عن مواقفهم من الحربات، وقضايا الأمة الإسلامية بوجه عام.

فرأينا من قبل جمال عبد الناصر يحج، وموقفه من الدين بحسب ما كان يحكي المقربون منه كان موقفا سلبيا، وأحيانا متهكما، ومن فريضة الحج تحديدا، ففي أثناء أدائه العمرة، وهو يطوف حول الكعبة، قال لأحد من حوله: متى ننتهي من لعب الأطفال هذا؟! وفي نقاش له مع هيكل قال له: هل تؤمن بأن هناك آخرة؟ فقال له: لا أعتقد ذلك، فأخبره أنه على نفس فكرته. كذلك حج رئيس أندونيسيا السابق أحمد سوكارنو، وكان شيوعيا، وصديقا لعبد الناصر، ثم زيادة في الجرعة الدينية الشكلية، قام عبد الناصر بإعطائه الدكتوراه الفخرية من الأزهر الشريف في الفلسفة الإسلامية، فقال الشيخ الغزالي ساخرا: ولماذا لم يعطها له في التفسير والحديث، من باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت؟!

وحج الحكام المشهورين بالظلم والطغيان، والعسف للشعوب، والزج بالآلاف في بلدانهم في السجن، يفتح لدى الناس التساؤل حول: هل حج هؤلاء يقبل عند الله؟ وهل يعودون من الحج كيوم ولدتهم أمهاتهم، كما في الحديث النبوي الشريف؟
بداية إن الجزم بمسألة قبول عمل أو رفضه من الله سبحانه وتعالى، هو أمر يختص به الله وحده، ولا يملك أحد من خلقه أن يجزم بذلك، وهذه من صفات الخالق المتفرد بها سبحانه وتعالى، فإن الحساب على الأعمال لله وحده، فالبشر يملكون بأدواتهم حساب البشر على ما يقترفون من جرائم تتعلق بحقوق الناس، وبعض الجرائم المتعلقة بحقوق الله، لكن الحساب على التعبد والحساب الكامل على كل الأعمال في الدنيا والآخرة هو ملك لله وحده.

لكن الشرع جعل شروطا لقبول العمل، منها ما يتعلق بحقوق الله، ومنها ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بحق الله فإن قصّر فيه الإنسان، فإنه داخل في باب مغفرة الله له إن شاء الله، لقوله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، لكن ما يتعلق بحقوق العباد فلا يغفره الله تعالى إلا بمغفرة العبد صاحب الحق.

ومن شروط الحج المبرور: أن يكون من مال حلال، وأن يتخلص الإنسان من المعاصي المتعلقة بحقوق العباد. وكثير من الحكام الظَلَمَة الذين يحجون متهمون في ذمتهم المالية، والفساد المالي، فلو حج أحدهم من مال الشعب فهذا معناه أنه أسقط حج الفريضة عنه أداء، لكن الحج غير مقبول، وهذا أمر مالي ربما لا يطلع عليه كثير من الناس.

لكن ما لا يخفى على الناس، هو كم المظالم التي تمارس على الشعب، من حيث ضياع حقوقه المالية، وحقوقه السياسية والدينية، والزج بالناس في السجون، والقتل والتصفية للناس. كل هذه المظالم المتعلقة بالعباد تجعل قبول الحج، بل قبول أي عمل تعبدي، ودخول القائم بها الجنة، تجعله عملا مرهونا برد حقوق العباد، وصفحهم وعفوهم عنه.

فالقاتل للمسلم البريء مثلا، لو أنه أراد التوبة النصوح، فذهب لأهل المقتول وطلب منهم الصفح والعفو، فعفوا عنه جميعا، سواء بصلح على مال وتعويض أو بدون مقابل، وأسقطوا عنه العقوبة، فهنا سقطت عنه عقوبة الدنيا، ولا تسقط عنه عقوبة الآخرة، لأنها مرهونة بعفوين مهمين: الأول عفو الله تعالى عنه، وهو متروك لحسن توبته وعمله فيما بعد، والثاني: عفو المقتول نفسه، لأنه صاحب الحق الأصيل في ذلك، وسوف يأتي يوم القيامة -كما أخبر الحديث النبوي- يتشخب في دمه، يمسك بتلابيب قاتله، يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟!
وإذا كان الحاج قبل ذهابه للحج لا بد أن ينهي ديونه المالية، أو يستأذن من دائنه، فإن أذن ذهب وإلا فلا، فما بالنا بالديون الكبرى المتعلقة بالدماء والحريات. فقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، رغم أن الحديث لم يخبرنا ماذا فعلت القطة حتى تعاقبها المرأة هذا العقاب القاسي، فربما آذت أحد أطفالها، لكن مهما فعلت الهرة، فلا يجوز شرعا أن تصل قسوة قلب الإنسان لإنهاء حياة كائن حي، مسجونا محروما من الطعام والشراب.

والشهيد يُغفر له كل شيء إلا الديون، وهو من في مكانته عند الله، في دخول الجنة، والشفاعة لسبعين من أهله، ورفعة درجته، لكن حقوق العباد لا تمحوها الشهادة، ولا الحج، وهذا من عظيم عدل الله تعالى، فمحاولة أي حاكم ظالم مسح ظلماته ومخازيه برحلة للحج أو العمرة، أو بناء مسجد، أو طباعة مصاحف، أو فعل ما يشاء من أعمال تجمّل حكمه، فهو عند الله مرهون بإخلاص نيته له، وبموافقة عمله للشرع، ومن ذلك: رد المظالم، وإنهاء الخصومات التي لخلق الله عليه.

هذا البيان الشرعي مهم للناس، لأنه قد يفتن بعضهم في دينهم، أو يثيره الكارهون للدين، المشككون فيه، إذ كيف لمن يقترف كل هذه المظالم، دون التوبة منها بشروط التوبة الصحيحة، فيذهب لأداء عمرة أو حج، أن يكون واثقا من مغفرة الله، أو مسقطا لحقوق الناس ومظالمها؟! وهو ما يجعل الناس يفتنون في دينهم، وفي عدل الله تعالى، وهو ما لا وجود له في الشرع، فإذا كان المبشر بالمغفرة والجنة من الله، محمد صلى الله عليه وسلم، كثيرا ما يطلب من الناس القصاص في حقوقهم، ويطلب العفو، وفعله مع صحابته، ومع خَدَمه، ومع كل من ظن أن له حقا عنده، فكيف بمن دونه، وليس لديه أي بشارة بمغفرة، فضلا عن الظلمة والمستبدين، المبشرين بعقاب الله وانتقامه؟!